ذل الطمع أعناق الرجال

بقلم الأستاذ الدكتور يحيى أحمد الدرديري

تتفاوت أقدار الرجال في ميدان الأعمال حسب ما يجدون ويكدحون وتسعد الأمم حسب ما يقدمه أبناؤها من البذل والتضحية في سبيل رقيها وتقدمها وأكثر الأمم قوة هي أكثرها في ميدان العمل رجالا مخلصين للغاية السامية التي نصبوا أنفسهم لخدمتها، صابرين على تحمل المشقات والأذى في سبيل تحقيق المبدأ القومي العالي، ناكرين ذواتهم في ساحة النضال والكفاح

لما حل الإسلام بالعالم، ونادى بإنكار الذات في سبيل الذود عن الحق ونصرته، وجعل كلمة الله هي العليا وما دونها هي السفلى، وتلقت العرب هذه الرسالة بالإيمان والتصديق، خرجت عن مالها ونفسها متبعة لمرضاة ربها، فكان جزاؤها أن سادت العالم في عشرات الأعوام، وفاقت غيرها ممن سبقها من الأمم المتحضرة بمئات السنين، وذلك على الرغم من قلة عددها وعديدها. عملت فنالت، وجدت فسادت.

وعلى النقيض مما تقدم تتدهور الأمم بفقر أفرادها وتوانيهم عن السعي، وبتواكل زعمائها ورؤسائها عن نصرة الحق وانفراط عقد اجتماعها في دور اللهو وترك صالح الأعمال مبعثرين هنا وهناك، يجمعهم الرياء، وتفرق بينهم الأنانية. وتلعب برؤوسهم الأماني والأحلام، ويقعد همهم الخيال والأوهام. يقترحون ولا يعملون. وإذا ما دعوا إلى العمل جعلوا بينهم وبينه سداً من المعاذير الكاذبة، وفروا من أداء الواجب غير خجلين ولا نادمين.

أمة يقل فيها العامل ويكثر فيها الخامل نواديهم هي دور فسق وفجور واجتماعاتهم مناحات وندب وأسف على ما فات، ولا يهمهم إلا إشباع الشهوات، وكلهم يلقي المسئولية على غيره ويطلب منه ما لا يطلب من نفسه. من كان هذا شأنه من الأمم فالشقاء لا شك حليفه، والزوال مصيره.

وعلة العلل في مثل هذه الأمم المستعبدة هي حب الذات القائم على الجهل بحقائق الأشياء. وأكبر مظاهر هذه العلة هو الطمع الذي يورد الإنسان موارد التهلكة بأحجامه

عن البذل فيما يجب . ويسعيه وراء مالا يتحقق ، فهو بين عاملين من أكبر عوامل الشقاء : قصور في أداء واجب وسعي وراء أمل كاذب . وكثيرا ما يقود الطمع صاحبه الى تنكب الصراط المستقيم ، فيورث صاحبه الذل والعار ويدفعه إلى طريق الدمار .

نرى كثيرا من الآدميين وأنصاف المتعلمين يسعون لجمع الثروة من طريق الكيميا (عمل الذهب) وباليتهم يتخذون الطريق العلمي المشروع من الدرس والاطلاع والبحث سواء من الآراء القديمة أو الحديثة . ولكن يتخذون أساتذة من الدجالين والنصابين والأفاكين ولا يكون نصيبهم من ذلك إلا الخسران المحقق .

الكيميا الذهبية أو صناعة الذهب من عناصر معدنية قليلة القيمة ، عمل مشروع في ذاته لكل باحث تتوفر فيه شروط البحث العلمي الصحيح ، وأول هذه الشروط أن يكون الإنسان عالما بالكيمياء الحديثة وعنده معمل يساعده على مهمته . متصل بأحدث الآراء والمكتشفات عن طريق المجلات العلمية .

وإن ما يدهش له الإنسان في هذه الطائفة الضالة الباحثة عن الثروة من غير طريقها ، أنهم يضعون أنفسهم رهن تعاليم جماعة من جهلاء المحتالين فيغررون بهم ويسلبونهم ما في أيديهم وهم لا يعتبرون بما يصادفون من الخذلان . وضياع الأموال إذ أن الطمع جعل على أعينهم غشاوة فهم لا يبصرون . ومثلهم كمثل الصدق المخدوع الذي زعموا في شأنه أن سارقا قصد بيت رجل من الأغنياء . وكان معه جماعة من أصحابه فاستيقظ صاحب المنزل من حركة أقدامهم فعرف امرأته ذلك فقال لها :

رويدا أني لأحسب اللصوص علوا البيت فأيقظيني بصوت يسمعه اللصوص وقولي : ألا تخبرني أيها الرجل عن أموالك هذه الكثيرة ، وكنوزك العظيمة . فاذا نهيتك عن هذا السؤال فألحي علي بالسؤال . ففعلت المرأة وسألته كما أمرها . وأنصت اللصوص إلى قولهما فقال لها الرجل :

أيتها المرأة قد ساقك القدر إلى رزق واسع كثير فكلي واسكتي ولا تسألي عن أمر إن أخبرتك به لم آمن إن سمعه أحد فيكون في ذلك ما أكره وتكرهين . فقالت المرأة أخبرني أيها الرجل . فلعمري ما بقربنا أحد يسمع كلامنا . فقال لها :

فاني أخبرك أني لم أجمع هذه الأموال إلا من السرقة . وكان الأمر علي يسيرا وأنا آمن من أن يتهمني أحد أو يرتاب قالت فاذكر لي ذلك ، قال :

كنت أذهب في الليلة المقمرة أنا وأصحابي حتى أعلو دار بعض الأغنياء مثلنا فأنتهي

إلى الكوة (الخرق فى الحائط) التى يدخل منها الضوء فأرقى بهذه الرقية وهى (شولم شولم) سبع مرات . وأعتنق الضوء . فلا يحس وقوعى أحد . فلا أدع مالا ولا متاعا إلا أخذته . ثم أرقى بتلك الرقية سبع مرات وأعتنق الضوء فيجذبنى فأصعد إلى أصحابى فنمضى سالمين. فلما سمع اللصوص ذلك قالوا : قد ظفرنا الليلة بما نريد من المال . ثم إنهم أطالوا المكث حتى ظنوا أن صاحب الدار وزوجته قد هجعا . فقام قائدهم إلى مدخل الضوء وقال : (شولم شولم) سبع مرات ثم اعتنق الضوء لينزل إلى أرض المنزل فسقط على أم رأسه منكسا . فوثب إليه الرجل بهراوته . وقال له من أنت ؟ قال أنا المصدق المخدوع المغتر بما لا يكون أبدا . وهذه ثمرة رقيتك .

لو أن عشاق الثروة وجمع الذهب سلكوا الطريق المشروع من التجارة والزراعة والصناعة ، لما كان عليهم لوم ولا تثريب ، ولكنهم اتخذوا طريقا معوجا ملتويا يقودهم فيه أناس لا خلاق لهم بل هم من أحط الناس وأسفلهم . ولو علموا صياغة الذهب من عناصر كيمائية رخيصة لأغنوا أنفسهم وضنوا بعلمهم وبثروتهم على غيرهم .

كشف الحقائق فى الكون له طريقان : طريق البحث والدرس وهو الطريق العلمى المعروف المتداول فى المدارس والجامعات والمعامل ، أو من طريق الكشف الروحى وذلك يأتى عن طريق الرياضة النفسية وفطامها عن مطامعها وشهواتها وهذا طريق الخواص ، ولا يتيسر لطالب الذهب أن يسلكه ما دامت غايته حب المال وجمعه فهذه الغاية هى حجاب بينه وبين صفاء نفسه لإدراك حقائق الأشياء . وكلا الطريقين لابد لسلوكهما من العلم وإلا كان السالك فيهما مغررا بنفسه ، وكانت عاقبته إلى الهلاك والفشل .

توجد طائفة أخرى من المتعلمين تريد الكسب من طريق الوظائف . وقد أصبحت الوظيفة وكراسى المنصب . أمل الكثير من المتعلمين . ولو سلكوا لها طريقها المشروع لما كان هناك لوم لائم . ولكن تواثبوا عليها من طريق الصوفية وإذلال النفس ، وضياع الوقت فى الانتظار على الأعتاب . والوقوف بالأبواب وغمر نفوسهم ذل السؤال . وحطمن هممهم انتظار النوال . وعملهم ليس فى شيء من عزة المتعلم الأبى . ولا من جلال المؤمن التقى . . أمة هذه حالها من نفر مفتون بحب المال الذى أخذ عليه لبه وسمعه وبصره ، وآخر وله بالمنصب والجاه ففقد فيه عقله ورشده . لا بد أن تكون خليقة بالشقاء وعظ الهم والبلاء .

أيها الحريصون على الحصول على المال ، ويا أيها المفتونون بالمناصب لقد أذل الحرص أعناقكم . وأهدر كرامتكم وأضاع عزتكم ; فصدتم غير الله تخذلكم واعتززتم

بغير ربكم فسلط عليكم ما قصدتم ، ونسيتم أمر خالقكم فأنساكم طريق الهداية ، واستحوذ عليكم الهوى فولجتم مسالك الغواية ، فإذا أنتم بين ضال ومضل ، ومفتون ومغبون . وذليل ومقهور ، وقد قال بعض الحكماء : وجدت أطول الناس غما ، الحسود . وأهنأهم عيشا ؛ القنوع . وأصبرهم على الأذى : الحريص إذا طمع . وأخفضهم عيشا أرفضهم للدنيا ، وأعظمهم ندامة، العالم المفرط.

إذا كان السعي على الرزق واجبا فيلزم أن تصحبه عزة الإيمان وسلامة الوجدان والاعتماد على الله وحده .

وإذا كان العمل في هذه الدنيا أحد فروضها وأهم لوازمها ، فالتوكل على الله يجب أن يكون عمادها ، وكتاب الله وسنة نبيه صلوات الله عليه يجب أن يكونا طريقها ومنهاجها . وقد قال صلى الله عليه وسلم : أيها الناس :أجملوا في الطلب ، فإنه ليس لعبد إلا ما كتب له ولن يذهب عبد من الدنيا حتى يأتيه ما كتب له من الدنيا وهي راغمة .

وقال أبو حازم رضي الله عنه : وجدت الدنيا شيئين منهما ما هو لي فلن أعجله قبل وقته ولو طلبته بقوة السموات والأرض . ومنهما ما هو لغيري فذلك لم أنله فيما مضى فلا أرجوه فيما بقي . يمنع الذي لغيري مني كما يمنع الذي لي من غيري ، ففي أي هذين أفني عمري ؟ .

يجب أن نعرف أن لهذه الدنيا ربا قادرا ، قد وضع لها نظاما محكما من سلكه نجا وسعد ومن حاد عنه ضل وشقي . وقد قال تعالى وقوله الحق : « من أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكى ونحشره يوم القيامة أعمى : قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا ، قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى » .

لو بحثت عن السبب الأصيل لهموم الناس وأحزانهم وشقائهم وإذلالهم ، لوجدته في حرصهم وأطماعهم وتركهم التمسك بكتاب ربهم والاهتداء بهدي نبيهم ، وليس هناك أمل في رد العلة وكشف الغمة إلا بالرجوع إلى خالقهم طائعين تائبين وتنفيذ ما جاء به شرعهم راضين جادين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إن الرزق مقسوم لن يعدو امرؤ ما كتب له فأجملوا في الطلب ، وإن العمر محدود لن يجاوز أحد ما قدر له ، فبادروا قبل تفاني الأجل ؛ والأعمال محصاة لن يهمل منها صغيرة ولا كبيرة ، فأكثروا من صالح العمل . أيها الناس إن في القنوع لسعة ، وإن في الاقتصاد لبلغة ، وإن في الزهد لراحة ، ولكل عمل جزاء ، وكل آت قريب » .

الدكتور يحيى أحمد الدردبرى